مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة علمية محكمة تصدر ربع سنوياً

الأبعاد النفسية في أدب السجون

أ. أمساعد محمود عياد

قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة طبرق – ليبيا

د. سالم مرجان الدبوس

محاضر بقسم اللغة العربية

العدد: التاسع

يناير 2022

المستخلص

أدب السجون هو نوع أدبي يصف الأدب المكتوب عندما يكون الكاتب مقيدا في مكان ضد إرادته، مثل السجن والإقامة الجبرية، ويمكن أن تكون الأدبيات حول السجن، أو عن مرحلة قبله، أو مكتوبة أثناء إقامة الكاتب في السجن وإما أن يكون مذكرات أو قصصا أو محض خيال.

وغزارة ما أنتج من أدب اصطلح على تسميته (أدب السجون)، أصبح ظاهرة تستدعي الوقوف حيالها، والبحث النقدي في مضمونها، ولغتها، ومدلولاتها.

ومما اعتني به أدب السجون، هو تمجيد الآلام، والتغني بصورة البطل الذي عانى كثيرا من ويلات السجن من تعذيب وتقييد للحريات، وفي العهد القريب أصبحت هذه الظاهرة، مدعاة ليتحول هذا الأدب ليكون بمثابة وثيقة حقوقية.

وهذه الورقة تدرس الأبعاد النفسية الشعورية في أدب السجون، ويُقصد بذلك مشاعر الكاتب، والتي تُعد مصدراً أساسياً للإبداع الشعري، وتطرح بعض الأسئلة وهي:

1- هل العلاقة بين السجين والسجان علاقة اغتراب أم لا؟

2- هل نجح أدب السجون بأن يكون حالة لها خصوصيتها المتفردة عن بقية الظواهر الشعرية الأخرى؟

3- هل القمع من قبل السجّان حالة فردية أم ظاهرة عامة لمسمى السجّان؟

وتقوم الورقة على عدة محاور أهمها:

أولا: أدب السجون وعلاقة السجين والسجان.

ثانيا: الأبعاد النفسية في أدب السجون المعاناة والقهر.

ثالثا: نماذج حول البعد النفسي الشعوري في أدب السجون.

الكلمات المفتاحية: الأدب – السجن – السجان – السجين – القهر – البعد النفسي الشعوري.

تصدير

بات أدب السجون وثيقة حقوقية تعتبر في مضمونها الأدبي والمعرفي إدانة للسجان المتسلط ومن وراؤه من جهة، ومن جهة ثانية وثيقة إنسانية توثق العلاقات الاضطهادية في العلاقة بين السجين والسجان بأبعادها المجتمعية والنفسية.

غالبا ما اعتبر أدب السجون وثائق إدانة لنظام ما، أو صور للقمع، فرديا أو جماعيا لتكتفي بأحسن الحالات بالتعاطف، مع شخوصها، وكُتابها، أو تأخذ حيز المسكوت عنه وحسب.

في سياق دراستنا نحاول أن نطرح بعض الأسئلة التي كانت تحتاج إلى إجابة، وتلك العلاقة الجدلية ما بين السجين والسجان، والتي تحمل أبعادا نفسية واقعة على ذلك السجين المغلوب على أمره.

وأدب السجون اليوم –شعرا ونثرا– يحتل مساحة واسعة على مستوى الأدب عامة، ويزخر بنتاج غزير لا يمكن لأحد إغفاله. وهنا في هذه الدراسة نحاول لفت النظر لهذا الكم الغزير مما أنتج في سياق مآسي السجون والدهاليز خلف الأسوار العالية.

المقدمة

أدب السجون أدب المحنة، وقساوة التجربة، أدب الصبر وغصب النفوس على معايشة ظروف غالبا لا تُطاق. أدب ألم الحقيقة التي اضطر كثيرون لتجرع غصصها مرغمين؛ خصيصا عندما يكون المسجون مظلومًا.

إن موضوع أدب السجون من الموضوعات التي تحولت إلى ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستفيضة، والوقوف حيالها، والبحث في مضمونها ولغتها ومدلولاتها كضرورة معرفية، حيث اعتبر لزمن مضى وثيقة حقوقية فقط، توثق الانتهاكات القانونية والإنسانية بحق الأفراد، لمجرد التعبير عن آرائهم، كما واختزلت أيضا بجانب توثيق وسائل العنف المستخدمة، لتكون وثيقة إدانة للسجان، ومن يقف خلفه من ممثلي المؤسسات السلطوية، وقد اهتم أدب السجون بتمجيد الآلام، والتغني بأبطالها، وتصوير معاناتهم من القهر والذل وتسليط الضوء على الأبعاد النفسية الشعورية التي عايشها وعاناها من ابتلي بالحبس وتقييد الحريات.

أسباب اختيار الموضوع

من الأسباب التي دفعتني لدراسة هذا الموضوع أن:

- رغبتي في تسليط الضوء حول بعض النماذج التي لم يتم استيعابها من قبل.
- رفع الظلم عن أدب السجون فيمن اعتبره مجرد وثيقة تاريخية تصف ما يتعرض له المساجين فحسب، إنما يصور حالة من القضايا الإنسانية المشبعة بالآمال والأحلام، وكذلك الآلام.
- أهمية هذا الموضوع الذي يعد ملازما للقمع الذي رافق الطبيعة البشرية فحضر في كل اللغات البشرية.

الدراسات السابقة:

دارت بعض الدراسات السابقة حول موضوع أدب السجون وآثره نذكر بعض هذه الدراسات على سبيل الذكر لا الحصر:

- ثنائية السجين والسجان والعلاقات الاضطهادية في أدب السجون "دراسة نقدية بنيوية" يوسف الشوفي.
- ظاهرة شعر السجون وتجلياتها في الأدب العربي القديم، د طارق زيناي.
- شعراء عباسيون في غياهب السجون، د محمد حسين عبدالرحيم السماعنة.
- أدب السجون، شعبان يوسف.
- أدب السجن من التأسيس إلى إشكالية التجنيس، نقوس المهدي.

منهج البحث:

لقد قمت باتباع المنهج الوصفي الذي يعد طريقة من طرق التحليل والتفسير بطريقة علمية من أجل الوصول إلى أغراض محددة الوضعية، آملاً الوصول إلى الغاية من البحث، متبعاً ذلك بالجانب التطبيقي على النموذج الذي اخترته، لإثراء فكرة البحث، وتأييدها من الناحية العملية، استكمالاً للجانب النظري، الذي بدأت البحث به، فالمنهج الوصفي يقوم بدراسة الظواهر كما هي في الواقع. ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً، معبراً عنها كماً وكيفاً.

خطة البحث:

أقيم البحث على ثلاثة محاور:

الأول: أدب السجون وعلاقة السجين والسجان.

ثانيا: الأبعاد النفسية في أدب السجون المعاناة والقهر.

ثالثا: نماذج حول البعد النفسي الشعوري في أدب السجون.

المحور الأول

أدب السجون وعلاقة السجين بالسجان

من المعلوم أن الدلالة إلى مفهوم السجن في اللغة العربية موجودة منذ القدم فقد وردت مفردات مثل السّجن،والحَبس والحَجز في كثير من دواوين الشعراء العرب وفي المصنفات الأدبية المختلفة.

وجاء في معجم "لسان العرب" على سبيل المثال لابن منظور:

(سَجَنَ: السّجن أو الحبس، والسّجن بالفتح المصدر سّجّنّةُ يسْجُنُهُ سَجْنًا أي حَبَسَه وفي قوله تعالى: (قال رب السجن أحب إلي) وقد قرأت بفتح السين وكسرها.[1]

وفي "القاموس المحيط " نقرأ في: فصل السّين "باب النون" ما يلي:

(سَجَنَهُ: حَبَسَهُ، والسجن بالكسر المحبَس وصاحبُهُ سجّان والسّجين المسجون: جمعه سُجناء، وسجنى وهي سجينٌ وسجينة، ومسجونة من سجنى وسجائن).[2]

فالسجن في المعاجم العربية بمعنى الحَبس وحجز الحرية والإيقاف عن العمل لسبب من الأسباب، وقد استعمله الشعراء الجاهليون للدلالة على تلك الحالة، ومنها بائية الشاعر "عُدي بن زيد

العبّادي "، الذي يمكننا أن نعتبره أول شاعر عربي في قافلة السجناء الذين ذكرهم التاريخ الأدبي ووردت كلمة "مسجون" في قوله:

ألا من مبلغ النُّعمانَ عنيّ وقد تَهوَى النَّصيحةُ بالمغيبِ

أحظّي كانَ مشكلةً وقيدًا وغِلّا والبيانُ لدى الطبيبِ

أتتك بأنّني قد طال حبسي ولم تسأم بمسجون حريب.[3]

وقد وردت لفظة أخرى مرادفة للحبس وهي لفظة " اعتقال" وفسرت في "لسان العرب" بمعنى: عقل فهو عاقل وعقول من قوم عقلاء، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه.

وقال الأصمعي: مرض فلان فاعتقل لسانه إذا لم يقدر على الكلام، واعتقل: حُبس، ومنها عقل البعير، أي ثنى وظيفه مع ذراعه وشدهما جميعا في وسط الذراع، وكذلك الناقة، والعقال: الرباط الذي يعقل به وجمعه عُقُل.

والسجن اصطلاحا:

لقد سعى الإنسان إلى وضع قوانين عامة ومجردة لحماية نفسه أولا، ومصالحه ثانيا، ولكي يحد من الخروقات الجسيمة، وأصبح السجن بمرورالوقت مؤسسة تؤدي دور الرادع للمجرم عن طريق تعليمه بغية اصلاحه.[4]

أما "أدب السجون" عنوان الدراسة والبحث فالمقصود به هو نوع يصف الأدب المكتوب عندما يكون الكاتب مقيدا في مكان ضد إرادته، مثل السجن، أو الإقامة الجبرية، ويمكن أن تكون الأبيات حول السجن أو عن مرحلة قبله، أو مكتوبة أثناء إقامة الكاتب في السجن، وإما أن يكون مذكرات أو قصصي أو محض خيال.

ومن الجدير بالذكر أن أدب السجون قد عُنى بداية بتمجيد الآلام واختزال أصحابها بصفة البطل الناجي على غرار شخوص الأبطال الشعبيين.

وفي ذلك يقول الناقد والكاتب "ناهض زقوت" في مقالة كتبها إن"أدب التجربة الإعتقالية هو الأدب الذي كُتب داخل المعتقل ويعد أصدق أنواع الكتابات سواء على مستوى النثر أو على مستوى الشعر، لأنه وليد تجربة صادقة، خرجت من رحم المعاناة.

ورغم المحاولات التي بذلت حتى نتوصل إلى تعريف منضبط لأدب السجون، إلا إذا تمكنا من بناء تصور واضحة حول السجين أو الأسير في حد ذاته، وفي ذلك يقول: أحمد مختار البزرة إنه "إذا آل الأمر إلى عدوه، فتمكن منه التمكن كله وقدر على أن يتصرف بمصيره –كما يشاء– حياة أو موتا أو استرقاقا فقد أصبح أسيره وحبيسه".[5]

ومن هنا أصبح لأدب السجون ميزات وخصوصية جعلت منه جزءا لا يتجزأ من الأدب العربي بصفة خاصة، والعالمي بصفة عامة، مما شجعني على دراسته، محاولا تسليط الضوء على بعض الجزئيات لعلها تضيف شيئا ذا قيمة للدراسات السابقة التي دارت حول هذه الفكرة. وأمام النتاج الغزير من أدب السجون نجد أنفسنا أمام ظاهرة تستدعي الوقوف حيالها، والبحث النقدي في مضمونها ولغتها ومدلولاتها كضرورة معرفية حيث اعتبر لزمن مضى بمثابة وثيقة حقوقية فقط توثق الانتهاكات القانونية والإنسانية بحق الأفراد لمجرد التعبير عن آرائهم، ومن ضمن ما وثق إدانة السجان ومن يقف خلفه من مؤسسات ومن هنا جاء الاهتمام بفكرة هذا البحث متمثلا في المحور الأول الذي دار حول أدب السجون والعلاقة ما بين السجين والسجان، ولا يخفى على أحد أن العلاقة ما بين السجين والسجان هي علاقة بكل تأكيد قائمة على التنافر، بل والاغتراب، فالسجين مقيد في سجنه لقضاء عقوبة ما، وكذلك السجان مقيد بحكم عمله الذي يدفعه لحراسة ذلك السجين، وإن كانت حرية السجين مقيدة بشكل كلي حتى يفرغ من عقوبته، عكس السجان الذي يعد مقيدا تقييدا جزئيا ينتهي بانتهاء دوامه الرسمي.

ومن المفارقة أنه قد يصبح السجين سجّانا وبكل المعاني الرمزية والواقعية ويصبح السجان سجينا لخوفه وغربته، غربتان تسيران معا لتنتهشا الإنسان لتداخلهما وتشاكلهما وبالضرورة من هنا تظهر الآليات الدفاعية عن الوجود سلوكا وميولا.[6]

إلا أن هذا الأمر و طبيعة هذا العمل ربما تترك لكليهما أثرا غير طيب في نفسيهما، وهذا الأمر يرجع لطبيعة العلاقة وظروف السجن، بل وظروف البلد إذا شئنا أن نقول.

ولما لا؟ فسلب حرية الإنسان هي أعظم ما يمكن أن يصيبه، حتى ولو كان مطلوق اليدين، فحينذاك تصير الأرض بما اتسعت في بعض الأحيان سجنا كبيرا.

وهذا الأمر دفع بالعلاقة بين السجين ومن يحرسه، وكذلك المكان المسجون فيه أن العلاقة بينهم علاقة قائمة على التنافر بل والشعور بالاغتراب فالجو كلّه شحنات طاردة.

مما جعل في "المسألة أولا وأخيرا مسألة سيادة الإنسان على ذاته من غير أن يكون لأحد مشاركة في هذه السيادة".[7]

هذا كلّه كفيل بجعل العلاقة بين السجين والسجان علاقة يسودها جوٌّ من الغربة والنفور بل والوحشة، فالإنسان لا يقبل أن يشاركه أحد سيادته على نفسه، وكان هذا هو السؤال الأول الذي طرحناه من خلال درستنا هذه، وقد جاء السؤال الثاني حول هل نجح أدب السجون أن يكوّن له خصوصية تميزه عن غيرة ؟ والإجابة تظهر من خلال كونه في الغالب قائم على تجارب شخصية فريدة، بعيدة في الغالب كل البعد عن الأخيلة، فهو يعبر عن شعور بتجارب صادقة، ومعاناة أصحابها، ورافدا من روافد الأدب العربي حديثه وقديمه، مما جعله ذا خصوصية واستقلالية من حيث مضمون ما يطرح من خلاله.

ولو عدنا لعلاقة السجين والسجان فإننا نلاحظ أنه في الأساس لا توجد الظروف التي تدفع أو تساعد على وجود علاقة طيبة بين كليهما، فكلاهما يحمّل الآخر مسؤولية ما آل إليه من قيد للحرية، ولكن في الحقيقة أن لا ذنب للسجّان في حبس السجين، ولا ذنب للسجين في تقييد حرية السجان بأن يبقى في

محل عمله مدة ما، فالسجين حبس لجرم ما قد اقترفه، أو بسبب ظلم قد وقع عليه، وكذلك السجان يؤدي عمله الذي أُوكل إليه رغما عن أنفه، إلا أن بعض السجانين قد يُدفعون دفعا لممارسات ضد السجناء كالتنكيل، والتعذيب، والتعنيف، تجاه بعض السجناء مما جعل العلاقة تزداد سوءًا، وإن كان الأمر أحيانا يكون بسبب من هم أعلى منصبًا من السجّان، إلا أن طبيعة المكان ربما تترك في نفسية السجان دوافع نفسية تجعله يشعر بنوع من التلذذ تجاه ممارسة بعض الأشياء التي من شأنها أن تذل السجين وتقهره، مما يساعد على اتساع الفجوة بين السجين والسجان، وإن كنت أرى أن هذه الممارسات أصبحت ظاهرة عامة لغالبية السجانين تجاه السجناء، وليست حالة فردية، والسجون الإسرائيلية خير دليل عما يحدث للسجناء الفلسطينيين على أيدي السجانين دون ذنب يذكر، فقط ممارسة السادية والشذوذ الأخلاقي تجاه الأسرى الفلسطينيين.

ومع هذا فإن هناك بعض الحالات النادرة التي تخلو فيها العلاقة بين السجين والسجان من الاغتراب، إلا أن هذا قد يحدث في أضيق الحدود، فكما قلنا إن أي إنسان لا يقبل أن يشاركه في سيادته على نفسه أحد، فإنه لا يمكننا ادّعاء أن النفس البشرية قد تخلو من بعض الإنسانية؛ مما يخلق حالة من التعود بين السجين والسجان، فربما خلقت نوعا من الصداقة المضطربة فيما بينهما –وإن ندر– حدوثها.

وعلى الرغم من هذه الجدلية والعلاقة التي يغلب عليها القهرية ما بين السجين والسجان، وعلى الرغم من كون السجان هو سجين بحكم ظروف عمله المفروضة عليه وعدم إمكانية تركه لمحرسه مدة الدوام؛ إلا أن هذا الأمر قد خلق نوعا من العنف ونظرة السجان للسجين التي يشوبها الخوف كلا من الآخر مما جعل العلاقة اضطهادية من الأساس.

فالسجين يشعر بأنه مضطهد محروم من حقوقه، والسجّان يرى أن ظروف عمله ولقمة العيش أجبرته أن يرافق شخصا قد حكم عليه بالسجن وبذا تقيدت حريته وحركته، فما ذنب السجان أن يشاركه نفس العقاب، وفي ذلك يقول الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد) والذي كان سباقا في شرح قوانين حياة الأسير وكذلك السجين المقهور المستلب حاليا فيقول: "يقابل التجبر بالتذلل والتصاغر وتعديل الشدة

باللين والمطاوعة، ويطالب بحقه باستلطاف كأنه طالب صدقة وكسب معاش مع شكاية الحاجة والتعامي عن زلات المستبدين والتصامم عن سماع ما يُهان به... إلى آخره".[8]

إذن فالاضطراب الوجداني هي حال السجين، في اختياراته، والتي يظهر من خلالها هذه الحالة التي يكون فيها السجين وطبيعة العلاقة بينه وبين السجان، والتي يشوبها الحذر والخوف والتوجس والترقب، وكل المشاعر المضطربة داخل السجين وكذلك السجان.

ومن الجدير بالذكر أن أدب السجون لا يقف على أن يكون مجرد وثيقة توثق وسائل التعذيب بغية التعاطف مع السجين فحسب بل انتقل أدب السجون للقراءة والتأمل فيما أبعد من الثقافة والبعد النفسي اللذين أنتجا العنف.

وهذا العنف الحاصل لهو آلية قهرية هدفها منع أي حالة تمرد أو مخالفة أو عصيان لأحكام المتسلط المستبد.[9]

أدب السجون قديم لا نستطيع ادّعاء تحديد بداياته الحقيقية، فبما أن الأدب هو حياة الشعوب ولسانها الذي يدافع وينافح عنها وتلك المرآة التي تعكس البريق واللمعان الذي يشع من العيون عندما تملأنا سعادة أو سرور، وإن أدب السجون الذي هو بطبيعة الحال نوع من الأدب بدأ يتبوأ مكانا ساميا على مستوى الدراسات الإنسانية والنقدية، وإن كان هذا النوع لصيق بمشاعر معينة رهينة لمأساة البعض ممن حكم عليهم الدهر بالسجن والبقاء لفترة طالت أم قصرت، يرى فيها الإنسان الحياة بوجهها الحقيقي بلا رتوش تزينها، فقد يمر على الإنسان الوقت كالدهر، يتعلق فيها قلبه بذلك الضوء الذي يتسرب من خلف قضبان حديدية، وتكون حاسة السمع على أهبة الاستعداد تنتظر سماع خطوات السجان عندما يأتي لإحضار الطعام، وكذلك صرير الباب، ذلك الصوت التي تعتاده أذن السجناء، من كثرة سماعه، فلا مكان لسماع الموسيقى أوالطرب، فربما لا تسمع سوى آهات السجناء، وأسواط الجلادين.

ومن خلال المحور الأول الذي دار حول أدب السجون، وعلاقة السجين بسجانه، نلاحظ أن هذا الأدب قد برز فيه دور المكان أيما بروز، ولمّ لا؟ فالمكان هو ذلك المسرح الذي تدور فيه الأحداث، فلا مكان للزمان، فالسجين عليه أن ينسى أن يعد أيامه، التي تتكرر كل يوم بحذافيرها، لا جديد سوى أن عقارب الساعة تتحرك في صمت رهيب، لا ينفع معه سوى طول الأمل، والرغبة في الحياة. أما أبطال العمل، فلا ينفعهما سوى الصبر، وليس غير الصبر، فالأول معاقب يقضي عقوبة، والثاني حارس له، كلاهما يتعذب، وإن كان الأمر يتحول لكره متبادل فيما بينهما، وفي رأيي أن السجن هو المدرسة الحقيقية التي نتعلم فيها أن الحرية نعمة وإن كانت مع رغيف خبز وشربة ماء.

فالسجين في سجنه لا يملك سوى الشكوى والندم، وإن حاول الاعتراض فسيكون العقاب القاسي والرادع، والسجان لا يملك سوى بسط سطوته على السجناء، فأصبحت العلاقة علاقة اغتراب كل ينأى بنفسه عن الآخر ويتحاشاه غالبا، وإلا وقع الصدام، وهذا ما حكاه التاريخ فلا السجين راض بحاله، ولا السجان كذلك، وكان الأدب هو ذلك الحبل الذي يعمق هذا الاتصال الجبري، فالأدب شعرا كان أم نثرا يحاكي هذا الحديث الذي يدور بينهما صمتا لا كلاما، يؤرخ لواقع السجن ومن يعيش فيه، فالأمر كان وسيظل هكذا حتى قيام الساعة، علاقة موقوته ستنفجر في أي لحظة، فلا السجون ستخلو من سجنائها ولا سجانيها، وستستمر الحكايات وفصولها حتى النهاية.

المحور الثاني

الأبعاد النفسية الشعورية في أدب السجون المعاناة والقهر

إن الخوف والرهبة من السجن كفيلة بأن تخلق أبعادا نفسية مريرة تشكل حياة السجين وتلقي بظلالها على السجان –أيضا – ولمَ لا؟؛ ففي خضم معالجة هذه الأبعاد النفسية لابد من أن نعرج على ثنائية السجين والسجان وأثر ذلك في ترسيخ حالة المعاناة والقهر الذي يظهر جلّيا في أدب السجون، وهذا ما دفعنا لهذه الدراسة، وأعطى لهذا النوع من الأدب خصوصية فكما هو معلوم أن "المعاناة تولّد الإبداع، لأن الإبداع لا ينتج عن شخص عادي يعيش في ظروف عادية فقد حاول عديد الباحثين تفصيل هذه الظاهرة

وشرحها، سواء أكان إبداع، صورة أم يكون غير ذلك هي الكشف عمّا شهده الشاعر عن نقص في بيئته وكيف دفعه شعوره بالنقص إلى تفقد الحال الذي يرضيه ".[10]

ويظهر في عديد الأعمال الأدبية التي تُعنى بأدب السجون منذ العصور الأولى الكثير من صور المعاناة والقهر، وتجارب بعض الشعراء الذين ذاقوا ويلات السجن، وخاضوا في ظلمته، وأرِقُوا في عتمته، وأن أخبارهم وأثارهم موزعة متفرقة في كتب الأدب، و كتب التاريخ.

وشعر السجن ظاهرة بارزة واضحة في شعر العرب منذ العصر الجاهلي، كما ذكرنا – سابقا– مع الشاعرعُدي بن زيد، عندما سُجن في سجن النعمان بن المنذر ملك الحيرة

ألا من مبلغ النعمان عنيّ وقد تهوى النصيحة بالمغيب

أحظى كان مشكلة وقيدا وغلا والبيان لدى الطبيب

أتتك بأنني قد طال حبسي ولم تسأم بمسجون حريب.

وكذلك سُجن الشاعر الحطيئة عندما هجا الشاعر الزبرقان بن بدر، فحبسه الخليفة عمر بن الخطاب في بئر، فنظم أبياتا عاد من خلالها إلى شاعريته الحقيقية الصادقة البعيدة عن الهجاء، حملت هذه الأبيات قضيته وجعلت الخليفة العادل عمر بن الخطاب يرق له ويعفو عنه، وقال في هذه الأبيات[11]:

ماذا تقولَ لأفراخٍ بذِي مرخٍ زُغْبُ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ

ألقيتَ كاسِبَهمْ في قَعْرِ مُظْلِمةٍ فاغْفِر عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ

أنتَ الإمامُ الّذي من بعدِ صاحِبِهِ ألقَى إليكَ مقاليدَ النُّهَى البشرُ

هذه الأبيات القليلة كان لها تأثير كبير على الخليفة عمر وقيل إنه لم يكد يسمع الحطيئة يذكر أولاده الصغار الذين أصبحوا بعد إلقائه في ذلك البئر دون عائل ودون طعام أو شراب حتى سالت دموع عينيه، وشعر بالأسى على أنه قام بسجن الحطيئة والتسبب في أذى أطفاله، ومع ذلك لم يرض الخليفة عمر أبدا أن يتناول الشاعر الآخرين بالهجاء والشتم والقذف.

وكذلك سُجن الشاعر هدبة بن خشرم العامري بسبب قتله زيادة بن زيد الذبياني في سباق وتنافس بينهما وكان ذلك في العصر الأموي، فقال في ذلك واصفا حاله في السجن:

إنِّي عداني أن أزوركم محكمٌ متى ما أحرك فيه ساقي يصخب

حديدٌ ومرصوصٌ بشيد وجندل له شرفات مرقب فوق مرقب

يُخبرني ثُراعه بين حلقة أزوم، إذا عضت وكبل مضبب.[12]

تذكر هدبة حبيبته وهو في غياهب السجن، وتمنى لقاءها ولكن أنّى له ذلك وهو مسجون مربوط بالسلاسل والقيود الثقيلة المشدودة على ساقه، والتي ثبت طرفها الآخر بجدران السجن، وهناك أبواب السجن الموصدة، والسجان خفير أمام الباب، والسجن يقع في مكان مرتفع والحرس على شرفاته.

ولكنها ظهرت وبرزت في العصر العباسي، ففيه سُجن الشاعر لأنه هجا، وسُجن لأنه مدح، وسجن لأنه قال شعرا، وسجن لأنه لم يقل، وسُجن بسبب، وسُجن بلا سبب، فقد رافق وصول العباسيين إلى الحكم –كما هو معلوم– كثير من الخلافات السياسية والفكرية، ومنها عندما سجن المأمون أبا العتاهية، عندما تنسك ولبس الصوف وامتنع عن قول الغزل.[13]

فقد عرف عن الرشيد أنه يحب سماع الأناشيد من الملّاحين حين يركب السفينة فطلب من أبي العتاهية أن ينشد له شعرا فرفض، فأمر الرشيد بحبسه، ولما سمع هارون الرشيد أبياتا لأبي العتاهية على لسان الملّاحين والتي يقول فيها:

خانك الطرف الطموح

أيها القلب الجموح

لدواعي الخير والشر

دنوّ ونزوح

وعندما سمع الرشيد هذه الأبيات التي أُنشدت له من كلام أبي العتاهية، بكى بكاءً شديدا من هذا الكلام، فكان معروفا عنه أنه يبكي عند الموعظة، فعفى عن أبي العتاهية.

من خلال ما سبق نجد أن لأدب السجون منذ بداياته وحتى يومنا هذا حالة من الخصوصية، والتي كان عنوانها المعاناة والقهر، فجاءت صادقة في كل تعبيراتها، مرورا بالعصور التالية وصولا للعصر الحديث، فجاء الكثير من الأشعار في العصر الحديث على غرار ما سبقها من أشعار من الجاهلية وحتى اليوم، تعبر عن معاناة وقهر، وإن اختلفت الأسباب التي دفعت أصحابها إلى غياهب السجن، إلا أننا نقف أمام واقع لا مجال للهروب منه، أن أدب السجون ما هو إلا انعكاس لقضايا تعبر عن معاناة وقهر أصحابها، مما أثرى الأدب العربي بحالة من الدراما المشوقة.

وقبل الخوض في بعض النماذج قريبة العهد و التي تظهر فيها ملامح القهر والمعاناة في أدب السجون نلاحظ أن العنف يأخذ أشكالا مباشرة وغير مباشرة تحدد سلوك وميول الفرد وأن العنف هو ظاهرة نفسية معادلة للقهر الممارس فهو بذلك يرى أن "العنف هو الوجه الآخر للإرهاب والقهر اللذين يفرضان على الإنسان في المجتمع المتخلف".[14]

نلحظ من الكلام السابق أن الخوف والقلق سمتان وجوديتان، تسودان عالم المسحوقين والمقهورين وعلى السواء تسود في عالم السجان المتسلط، كما إن جدل العلاقة يفرض أن التأثير سينعكس على كليهما، ولكن بأشكال مختلفة فالاستلاب هو القاسم المشترك بين السجين والسجان في عالم الاستبداد والاستلاب والتخلف، كل ذلك يُظهر الأبعاد النفسية والمعاناة والقهر التي يسود هذه العلاقة.

ولو تحدثنا مثلا عن معاناة شاعر كبير مثل محمود سامي البارودي عندما نفي لجزيرة سرنديب

والتي يصور من خلالها حالته النفسية بعيدا عن وطنه، فجمع بين الحنين والغربة وآلم السجن وفراق الأحبة، فكل ذلك يوضح المعاناة والقهر الذي يعانيه الشاعر من أبعاد نفسية شتى واصفا من خلالها حاله بعدما كان قائدا للجيش ومشاركا في الثورة ضد الاستعمار الإنجليزي وفي ذلك يقول:

كفَي بِمُقامِي في سرنديب غُربةً نزعتُ بها عنِّي ثيابَ العلائِقِ

ومن رامَ نيلَ العزِّ فليصْطَبِر على لقاءِ المنَايَا واقتحامِ المضايِّقِ

فإنْ تكُنِ الأيَّامُ رنّقن مشرَبِي وثلّمنْ حدّي بالخُطُوبِ الطوارقِ

فَمَا غيَّرَتْنِي مِحْنَةٌ عن خليقتي ولا حوّلتني خدعة عن طرائقي

ولكنَّني باقٍ على ما يسرَني ويُغْضِبُ أعْدَائِي ويُرضي أصادِقِي [15]

ففي البيت الأول والثاني والثالث يصور البارودي حالة المنفى التي عاشها على مر الأيام والسنوات التي قضاها في سرنديب وقدرت بسبعة عشر سنة وقطعت علاقات الود والحب والارتباط بالأهل والوطن، الأمر الذي زاده عزيمة وقوة وعندما بدأت صقور الحزن تناوشه يرتفع صوته ويأبى ويدعوه للثبات على الشدة والتحمل والصبر، لكى لا تفل عزيمته عن المصائب، وهنا يظهر أن الشاعر يشكو طول الغربة والقسوة التي أبعدته عن أهله ووطنه وصور الشاعر محنته وتحمله بالقوة والصبر، أما في البيتين الرابع والخامس نراه يذكر عدم خشيته من الأمر مهما تعاظم وأن سمو أهدافه وطموحاته ونضاله في سبيل مجد بلاده فسيبقى على سجيته الكريمة التي يحبها ويسعد بها أحبته.

من خلال ما سبق تظهر المعاناة الشديدة والقهر من خلال أبعاد نفسية أحاطت بالشاعر من كل جانب من فقد للأحبة، وغربة، ومنفى، وطول غربة استمرت لقرابة العقدين من الزمان، والحنين إلى تراب الوطن الغالي، كل هذه الأشياء أفرزت لنا حالة من الألم الممزوج بالفخر، والإباء وعدم الندم على ما فعل في سبيل وطنه، رغم الثمن الباهظ الذي دفعه الشاعر من أجل وطنه، حتى وصل به الأمر إلى إظهار فخره على ما قدم، وأنه سيبقى على سجيته الكريمة التي يحبها ويسعد بها أحبته، رغم كيد الكائدين، فحقا كان البارودي فارسا وأديبا.

ومثل ذلك كثير من النماذج التي عانت من ويلات السجن، ومعاناته النفسية من فقد للأحبة والعذاب، والذل وغيرها من معاناة وقهر، وعلى الرغم من أن أدب السجون يشمل النتاج الشعري، وكذلك النتاج النثري، إلا أنني أثرت أن أتناول النتاج الشعري فقط في هذه الدراسة، لما له من أثر، ونظرا لغزارته، وعدم الإلمام به من كل جانب.

حتى من خلال لفظة "أدب السجون" ذلك المسمى الذي أُطلق على ذلك النوع من الأدب الذي يحاكى تجارب أصحابه و الذي بفضل غزارته قد اتخذ خصوصية قلما نجدها في أدبنا على طوال تاريخه العريق، بكل عصوره من الجاهلي حتى الآن، فالمسمى جاء مواكبا لمضمونه، ومن اطلق عليه هذا الاسم قد جعل للمكان بُعدا آخر غير الفضاء المكاني المعروف، فكيف تجعل من السجن والذي هو بمثابة عار ينأى كل إنسان بنفسه عن ذكره كونه دخله، فإذ بنا نجد أنه، كأنه تحول إلى مدعاة فخر، بأن يذكر كنوع أدبي يشار إليه بالبنان، كجزء لا يتجزأ من تاريخ الأدب، ومن الجدير بالذكر أن تللك النماذج الشعرية المسماة بأدب السجون، هي لصيقة بكل فترة زمنية سابقة، منذ بداية التأريخ للأدب العربي، قلما نجد عصرا يخلو منها، ربما زاد زخمها في فترة الدولة العباسية نظرا للظروف التي تحدثنا عنها سابقا، إما لظروف سياسية، أو فكرية، على الرغم من ذلك فإننا نجد لهذا الأدب بعض الملامح التي قد تتشابه في ظروفها مع المدرسة الرومانسية كونها تتغنى بآلامها، وتسمو بقيمة الإنسان، وتتغنى بأحلامه وآلامه وطموحاته رغم حالتي القهر والمعاناة، فالمعاناة ناتجة عن القهر الذي يخلق بعد نفسيا في نفوس أصحابه، فإما أن يخرج السجين متفائلا ومتسامحا مع سجانيه ويطوي صفحة الماضي كأن لم يكن مثلما فعل الرئيس مانديلا في جنوب أفريقيا وإن لم يكن شاعرا، أو أن يخرج يائسا محطما كارها لكل المحيطين به، ناقما على سجانيه، مبغضًا لهم يحمل ميولا انتقامية تجاههم. هذا المزيج يجعل لهذا الأدب حالة تفاعلية يبقى أثرها طويلا.

ومن خلال سردنا لبعض الحالات التي عانت من ويلات السجن إما عدلا أم ظلما، نلاحظ أن كل هؤلاء لم يجدوا وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم سوى أشعارهم، التي كانت بمثابة محام يدافع بضراوة عنهم، ويعبر عن معاناتهم من السجن، وكأن هذه الأشعار تحولت إلى دليل إدانة ضد سجانيهم، ووثيقة حقوقية يطالبون من خلالها بحقوقهم المسلوبة. والجدير بالتنويه هنا أن الشاعر الذي خاض تجربة السجن،

وصور لنا ما قاساه خلالها؛ فهو لم يصور لنا تجربته هو فقط بل تجارب كل من عاش معه تلك المدة ولكنه ليس شاعرا، ففضل الشاعر الذي وثق هذه المعاناة يعود بالنفع على هذا الشاعر المسجون ومن معه من مساجين ليسوا شعراء.

بالتأكيد أن السجن يجعل الإنسان مدمرا نفسيا لدرجة لا يتخيلها إنسان على وجه الأرض، فقد اتفقنا سابقا، أن الإنسان لا يقبل شريكا له في السيادة على حريته وحياته، التي وهبها الله له، فالسجين يرى في سجانه سالبا إياه حريته وحياته التي اعتادها، والعائق الأول له في محاولة هروبه لو أراد ذلك.

كثير من الشعراء استفادوا من فترات سجنهم، فقد التمسنا نوعا من الفخر لدى البعض منهم عندما يأتي ذكر الحديث عن السجن، خاصة عندما يكون السجن لأسباب سياسية أو فكرية، فكأنما الشاعر قد تحول إلى مناضل يشار إليه بالبنان، وربما يذكره التاريخ، من خلال شعره الذي سيبقى ويخلد آجالا مديدة، تتناقله الأجيال من جيل لأخر، وفي حقيقة الأمر أن هذا النوع من الأدب قد اثبت بما لا يدع مجالا للشك أن للأدب بصفة عامة والشعر خاصة مكانة عظيمة بين الشعوب، ولما لا فالأدب أصبح المدافع الأول عن حقوق وقضايا أصحابه على مر التاريخ.

ومن أهم الكُتاب الذين كتبوا في أدب السجون هو الكاتب النمساوي فيكتور فرانكل الذي تناول معسكرات الاعتقال النازية التي عانى منها –على حد قوله– والتي استخلص من خلال تجربته فيها ما يسميه بالعلاج –النفسي الوجودي– توصل فرانكل من تجربته في معسكرات الاعتقال إلى نتيجة مفادها أن السجناء الذين تمكنوا من الخروج بمعنى لتجربة السجن على المستوى الشخصي أو الديني هم الذين استطاعوا أن يستمروا برغم الآلام التي مرّوا بها.

ولدينا في مجتمعاتنا العربية كثير من الكُتاب الذين عانوا من الاعتقال والسجن التعسفي، كمصطفى أمين وأخيه علي أمين، اللذان يعدان من رواد الصحافة في مصر والعالم العربي،

إذ يقول في رسائله المهربة من داخل السجن والتي ضُمِّنت في كتاب اطلق عليه (سنة أولى سجن) وحديثه عن الفترة التي قضاها في السجن:

في غياهب السجون وأعماقها المظلمة.. من خلال طاقة صغيرة مقسمة بقضبان صيدية ترى منها ما تيسر من الفضاء الخارجي.. كل من حولك يتوجع ويهان ولا يملك غير الصمت...

هذا هو الجو المحيط بالصحفي مصطفي أمين فيقص علينا أخبار وأنباء رحلته في السجن الحربي وغيره في فترة حرجة من تاريخ مصر في ستينيات القرن الماضي والتي رواها لنا من خلال كتابه سنة أولى سجن معبرا عن معاناته النفسية وحالة القهر اللامحدود. [16]

وغيرهم من الشخصيات التي ذاقت ويلات السجن وعذاباته، والتي بقي صداها يلقي بظلاله على الساحة العربية والعالمية، لينقل لنا خلاصة تلك التجارب التي غصّت بكم هائل من التجارب الإنسانية الحُبلى بالأبعاد النفسية والمشبعة بالمعاناة والقهر التي تغذي عقول الأجيال التالية بهذه التجارب والتي من خلالها تكون الأجيال على قدر من الوعي والفهم لتلك الظروف التي يجب أن تتغير بعدما وصلنا لمرحلة أصبح السكوت فيها خطيئة لا تغتفر.

وختاما لهذا المحور نحاول من خلال الجزء الأخير من البحث أن نتناول الجانب التطبيقي لهذه الدراسة من خلال تناولنا لبعض المقتطفات من نماذج شعرية نستكشف من خلالها هذه الأبعاد الكبيرة لعالم السجون من خلال آثار أدبية تحاكي تجارب أصحابها معلنة عن معاناة كانت ولازالت عالقة بالأذهان.

المحور الثالث

نماذج من الشعر العباسي

من خلال ما سبق وتأسيسا عليه يمكننا اعتبار السياسة دوما هي الفاعل الأول والمحرك الرئيس المتحكم بحياة المجتمعات والناس، والساحة الأدبية من أوسع الجوانب التي حرّكتها عجلة السياسة، أو تحكمت بكيفية سيرها، وما هو متوفر بين أيدينا من نتاج يمكن تبويبه تحت باب أدب السجون –نثر وشعر– ما هو إلا أحد ارتدادات الأمواج السياسية التي تتلاعب بحياة المجتمع وتصنف الأفراد وفق تماشيهم مع مخطط وضعته بإحكام.

فغالبا ما تزدهر الحياة الأدبية في كنف السلطان كازدهار ما يحيط بحواف الواحات من نخيل وأعشاب، وهذا النوع المقرّب من السلطان والمتكلم باسمه المنادي بسياساته لا يعنينا هنا؛ ما يعنينا هو أدب المعارضة أو أدب من ظُلموا بفعل السلطان أو حاشيته، الأدب الذي أنتج وولد في السجون وخلف القضبان، وفي عتمات الحب، حيث لا نصير ولا مجير من بطش السجانين، أو وحشة الوحدة والاغتراب الذي تتجمع حشوده كل وقت وحين فتحاصر وتحاصر السجين وتكتم أنفاسه. هو أدب يعبر عن نكبات ومحن حقيقية، ويستحوذ من صدق العاطفة على نصيب وافر إذا ما قارنّاه بغيره من الاغراض الشعرية التي يتمتع أصحابها بحرياتهم، فمثلا لا أرى وجه مقارنة بين قصيدة لمسجون قيلت خلف القضبان، وقصيدة في المدح والتزلف نُظمت في الغالب نفاقا ونُتانًا، لإرضاء مسؤول أو الفوز بجائزة شان بينهما. ولعل ما هو أشد إيلاما من هذا كُلّه يقيني –ولا أظن القاريء يخالفني الرأي– بأن هناك نتاج أدبي قيل في الحبوس ولم يُكيب له الذيوع أو الانتشار ليصل إلى عامة الناس، بل قيل ومات في السجن ربما بسبب نسيانه أو موت قائله هناك، أو ربما لم يجد من يخرجه منظلمات السجن ليتلقفه الموثقون خارجا. فهو ربما نص أو مجموعة نصوص تعبر عن تجربة صاحبها ومن عايشه تلك التجربة المؤلمة غالبا قيل في السجن وانطمس في السجن كذلك، ولا أبالغ حيث أقول إن ما قيل من من نصوص خلف القضبان ولم يُكتب له الوصول إلى عامة الناس هو أضعاف ما قيل هناك ووصل لمن هم خارج ثكنات السجون من عامة الناس. والأسباب في ذلك كثيرة يكفيك أن تعلم وتعرف أنها بيئة بوليسية بامتياز تحاول دائما جعل ما يحدث خلف أسوار السجون طي الكتمان فليس أسهل عندهم من منع خروج أي نص أو نصوص من السجن لمن هم خارجه.

وفي هذا المبحث سنقف عند أحد الشعراء الذين مرّوا بهذه التجربة، وصوروا لنا ظروف السجن ونفسية المسجون بداخله، ولعل ما تجدر الإشترة إليه دوما أن ما يوثّقه الأديب أو الشاعر المسجون يعبر عن حالته وحالة من يرافقه هذا السجن من غير الشعراء، ويصور للناس جميعا كما من المعاناة والبؤس الذي غالبا ما يحياه السجين. ولعل هذا كلّهُ يكون أشد وطأة حين تكون تهمة السجين تهمة سياسية لها علاقة بالسلطان وحوزته.

والعصر العباسي كغيره من العصور سابقة ولاحقة نشطت فيه حركة أدبية واسعة نشأت خلف القضبان. وسنحصر الشواهد هنا على الشعر في السجون دون النثر؛ ولا يمكننا نكران أن الشعر في هذه المواقف هو الأطول باعًا والأكثر شيوعا ربما لخاصية الظروف ولأن الشعر خفيف النقل سريع الحفظ، خاصة إذا ما علمنا أن الطابع الغالب على الحبسيات أو شعر السجون يتمثل بكثرة في المقطوعة والنتفة التي تصور موقفا أو مشهدا، أو تمثل لنا صورة جزئية من معاناة السجن اليومية. وكان هذا على حساب القصيدة المطولة التي ربما لا تصلح لمثل هكذا ظروف، ولا نعني بكلامنا هذا انعدام القصائد الطوال في باب شعر السجون؛ بل نلمح إلى غلبة وشيوع المقطوعة إذا ما قورنت بالقصيدة.

إبراهيم بن محمد بن عُبيد الله بن المدبّر[17]، يُكنى بأبي إسحاق ويلقّب بالضبّي[18]. قيل إنه ولد سنة 211هـ، شاعر وأديب صاحب شعر ونثر، كان في أيام المتوكل ونشأت بينهما صحبة متينة، قال الصولي: (خدم المتوكل وكانت له عنده حظوة)[19]. كما ذكر أبو الفرج هذه العلاقة في الأغاني فقال: (وكان المتوكل يقدمه، ويؤثره، ويفضّله)[20]. لم ينل ابن المدبّر شهرة معاصريه في مضمار الشعر، وعُدّ من الشعراء المغمورين، وكان من أبرز معاصريه البحتري، وابن المعتز وابن الرومي وعلي بن الجهم.

وما حدث مع شاعرنا هذا أن علاقته الوطيدة بالمتوكل لم تعجب أحد وزراء المتوكل، فسعى ما وسعه الجهد للإيقاع به وتشويه صورته لدى المتوكل، وما أن جاءته أخبار مفادها: أن أخا لإبراهيم ابن المدبّر اسمه أحمد كان على ولية أمر من أمور الدولة وأخفق في إدارته، فاستغل الوزير هذا الأمر وأغر صدر الخليفة على إبراهيم (كان أحمد بن المدبر ولي لعُبيد الله بن يحيى بن خاقان عملا، فلم يحمد أثره فيه، وعمل على أن ينكُبهُ. وبلغ أحمد ذلك فهرب، وكان عُبيد الله منحرفا عن إبراهيم شديد النفاسة عليه برأي المتوكل فيه، فأغراه به، وعرّفه خبر أخيه، وادّعى عليه مالا جليلا، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه، وأوغر صدره عليه حتى أذن له في حبسه)[21].

ومن هنا بدأت نكبة ابن المدبر وأطلق العنان لشاعريته لتصور لنا هذه التجربة المريرة والأحوال التي تقلّب فيها الشاعر طيلة مدة سجنه يقول أبو الفرج: (ولإبراهيم في حبسه أشعار كثيرة حسان مختارة).[22]

من خلال شعره نجده كثيرا ما يحاول إيصال فكرة أنه حُبس ظلما، وأنهم كادوا له ليودعوه السجن، من مثل قوله[23]:

ما رأى القومُ كذنبي عندهم عُظمُ ذنبي أنَّني لم أخُن

ظَفِرَ الأعداءُ بي عن حيلةٍ ولعلَّ الله أن يُظفِرني

لَيت أنّي وهُمُ في مجلسٍ يظهرُ الحقُّ بِهِ للفطن

ونحن نعرف أنه لو كان المسجون قد ارتكب جناية فعلا؛ فهو يستحق أن يودع السجن جزاء لما اقترفه، وعندها سيكون حاله بائسا متبرّما قلقًا. فكيف إذا كان مظلوما؟ كما هو حال ابن المدبر، ستكون آلامه مضاعفة وحالته النفسية والشعورية أشد وطأة.

ومن مقاساة المسجون ما يعتريه من نوبات الشوق والحنين للأحبة والصحب والديار وكل الأماكن التي كان يتردد عليها ثم حُرم فجأة من زيارتها وارتيادها، فهذا ابن المدبر يخبرنا بحاله عند هبوب ريح الشمال نحوه فهو يشتمُّ من خلالها روائح ألّافه وأحبابه، كما أنه عند هبوب ريح الجنوب يحملها سلامه وأشواقه، ويضمّنها أحزانه ولواعج نفسه لأولئك الأحباب، وهذه حالته دوما تسلّمهُ الشمال إلى الجنوب والجنوب إلى الشمال[24]:

وإنّي لأستنشي الشّمال إذا جرت حنينًا إلى أُلّافِ قلبي وأحبابي

وأهدي مع الرِّيحِ الجَنُوبِ إليهُمُ سلامي وشكوى طول حزني وأوصابي

والملاحظ أثناء مطالعة شعر السجن والحبس عند ابن المدبّر أنه بداية عهده بالسجن كان رابط الجأش، متصبّرا قوي العزيمة متقبلا لهذه النكبة طيّب النفس بها، كيف لا وهو يراه اختبارا وامتحانا من الله سبحانه، يُبيّن لنا ذلك في مثل قوله[25]:

تسلّى ليسَ طولُ الحبسِ عارًا وفيه لنا من الله اختبارُ

فلولا الحبسِ ما بُلي اصطبارٌ ولولا الليل ما عُرفَ النهارُ

وَمَا الأيامُ إلا مُعْقِباتٌ ولا السلطان إلا مستعارُ

وعن قدرٍ حثبِستُ فلا نقيضٌ وفيما قدّر الله الخيارُ

سَيُفرجُ ما ترين إلى قليلٍ مُقَدَّرُهُ وإن طال الإسارُ

يبدو هذا بداية عهده بالسجن وربما كان يتطلع إلى الخروج منه قريبا فلا يرى له حاجة بإهراق ماء وجهه وتوسل العفو من الخليفة ووزرائه، ونفس هذا النهج من ترويض نفسه للتصبّر على نكبته نجده في قصيدة أخرى، وفيها يبرر لنفسه قناعته تلك بأن الصبر أجدى وأنفع من طلب العفو، ونراه يصبّر نفسه بذكره لكثير من الظواهر التي يبدو في ظاهرها امتحان قاس ولكن حقيقتها صقل وتقوية لنفسه وعزيمته[26]:

أَلَا طرقتْ سلمى لدى وَقْعَةِ السَّاري فريدًا وحيدًا مُوثَقًا نازحَ الدَّارِ

هُوِ الحَبْسُ ما فِيهِ عَليَّ غَضَاضَةٌوهل كانَ في حَبسِ الخليفةِ من عارِ

ألستِ ترينَ الخمرَ يظهرُ حسنُها وبهجتُها بالحبسِ في الطينِ والغارِ

وما أنا إلا كالجوادِ يصونُهُ مُقَوَّمُهُ للسبقِ في طيِّ مضمارِ

إوِ الدرّةِ الزهراءِ في قعر لُجّةٍ فلا تجتلي إلا بهولٍ وأخطارِ

وهل هو غلا منزلٌ مثلُ منزلي وبيت ودارٌ مثلُ بيتيَ أو داري؟

ورغم هذا الجلد الذي يبديه تأمل المفردات الدالة على حقيقة نفسيته المكلومة: (فريدا، وحيدا، موثقا، الحبس، حبس) تسيطر على اللاشعور عنده وتعطينا انطباعا عن مأساته الحقيقية.

ولكن هذا الجدار الصلب من التصبّر وحث النفس على التجلد وتقبل هذا البلاء على علاته، بدأ يتصدع ويفقد صلابته، ويتقوض شيئا فشيئا، وبدأت نفسه تسأم هذا المقام الإجباري خلف القضبان، نجد هذا التبدل في موقفه، في قوله الذي وجهه إلى الأمير عُبيد الله بن يحيى بن خاقان، يستعطفه ويطلب إليه السعي لنجدته، ويراه أهلا لذلك. واصفا إياه بالملجأ والجار ووجه النجاح، صاحب العدل الشامل والحلم الذي يرجح في الميزان جبل ثهلان[27]:

معاذي وجاري وجهُك اليوم إنّهُ هو الوجهُ من يَبغي به النُّجحَ يَنْجَحُ

وعدلُكَ مبسوطٌ وأمنُكَ شاملٌ وحِلمك من ثَهلانَ أوفَى وأرجحُ

كما إنه عندما طال به المقام في السجن حاول غير مرة الاستعانة بالمسؤولين وأصحاب النفوذ للسعي في تخليصه. وروي أن خروجه من السجن كان بعد استعانته بمحمد بن عبد الله بن طاهر، وقام هذا الأخير بالإلحاح في أمر ابن المدبر، وتحمُّل ما هو مطلوب عنه من أموال، فوافق المتوكل ووهبه له. وفي ذلك قال ابن المدبّر أبياتا من أروع ما يكون في مكافأة الرجال، وردِّ الصنيع، وشكر الأياي بالمدح[28]:

دعوتُكَ من كربٍ فلبّيتَ دعوتي ولَمْ تَعْتَرِضنِي إذْ دَعُوتُ المَعَاذِرُ

إليكَ وقد حُلِّئتُ أورّدتُ هِمَّتي وَقَدْ أعْجَزَتني عن هُمُومِي المصادرُ

نَمى بِكَ عبدُ الله في العِزِّ والعُلا وحَازَ لكَ المجدَ المؤثّلَ طاهرُ

فَأَنْتُمْ بنُو الدُّنيا وأملاكُ جوِّها وساستُها والأعْظَمُونَ الأكَابِرُ

كما ذُكرت لهُ محاولات قبل خروجه سعى أو حاول الاحتيال من خلالها للخروج من الحبس، مثل ما روي من أنه نظم أبياتا رقيقة في النسيب، وأنفذها إلى المسدود الطنبوري، وطلب إليه أن يصنع فيها لحنا ويغنيها المتوكل، وعندما يسأل عن قائلها –كما كانت عادته– أخبره بأن القائل هو إبراهيم ابن المدبر وذكّره بأمره. وقيل إن هذا كان هو سبب فكاكه من السجن. والأبيات هي قوله[29]:

بأبي من باتَ عِنْدي طارِقًا من غير وعدِ

بَاتَ يشكو ألمَ الشُّو قِ وأشْكُو فَرْطَ وجدي

وتَجَنَّى فَبَكَى فَاذْ هلَّ درٌّ فوقَ وَرْدِ

فَيَدٌ تحْتَ يدٍ طَوْ رًا وخدٌّ فَوْقَ خَدِّ

وهناك مواقف أخرى سعى من خلالها إلى إيصال رسائل إلى المتوكل، وما كان ليجرؤ على الإكثار من مثل هذه المحاولات إلا لعظم مكانته عند المتوكل ولثقته بأنه لازال محظيّا لدى أمير المؤمنين. وهنا نجده يكتب قصيدة إلى عبد الله بن حمدون سائلا إيّاه تذكير المتوكل ووزيره الفتح بأمره، ليسعيا في إطلاق سراحه. وهي قصيدة من عشرين بيتا، مع طول هذه القصيدة النسبي؛ يجب ملاحظة أنها من نوادر القصائد التي استرسل فيها قائلها ليتجاوز المقطوعة إلى القصيدة. استهلها مبينًا حلته قائلا[30]:

كَمْ تُرَى يَبقَى على ذَا بَدَنِي قد بَلِي من طولِ همٍّ وضَنِي

أنا في أسْرٍ وأسبابِ رَدًى وحديدٍ فادحٍ يَكْلِمُنِي

يابنَ حمدونَ فتى الجُّودِ الذي أنا منهُ في جَنَى وردٍ جَنِي

ما الذي ترقُبُهُ أم ما ترى في أخٍ مضطهدٍ مُرتهنِ

كما يذكر ضمنها أسماء أعدائه ممن سعوا في الإيقاع به ونكبه، وأن منهم من لا يرضى بما هو دون سفك دمه –وكل هذه الأبيات من المصدر نفسه–:

وأبو عمرانَ موسى حَنِقٌ حاقدٌ يطْلُبني بالإحنِ

وعُبيد الله أيضا مثلهُ ونجاحٌ بي مُجِدٌّ ما يني

ليس يَشفيهِ سوى سَفْكُ دمي أو يراني مُدرَجًا في كَفَنِي

ومنها قوله ذاكرا الفتح وزير المتوكل الذي يعتبره صاحبا لا يتأخر عن الفزعة والنجدة حالَمَا تصله هذه الرسالة:

والأميرُ الفتحُ إن أذكَرْتَهُ حُرمَتي قامَ بأمري وعُنِي

فألُ صِدقٍ حين أدعو باسمهِ وسرورٍ حينَ يعرو حَزَنِي

قُلْ لهُ يا حُسنَ ما أوليتني ما لما أوليتني من ثمنِ

زاد إحسانُكض عغندي عِظَمًا أنهُ بادٍ لمن يعرِفُنِي

لست أدري كيف أجزِيكَ بِهِ غير أنّي مُثقلٌ بالمِنَنِ

ثم يتجه ابن المدبر إلى الفخر بطباعه وصفاته وأن من كادوه وسعوا في نكبته حساد، لم ولن يبلغوا شأوه، ولم يجدوا ما يعيبه سوى أنه وفيٌّ وهذا طبع تربَّى ونشأ به، وهي سجايا ورثها عن أبيه، واقتدى فيها بأخيه. وهم قد توارثوها عن أسلافهم ومعروفون بها منذ أزمان مديدة:

ما رأى القومُ كَذَنْبي عندهم عُظمُ ذنبي أنني لم أخنِ

ذاكَ فِعلي وتراثي عن أبي واقْتِدَائي عن أخي في السُنَنِ

سُنّةٌ صالحةٌ معروفةٌ هي منا في قديم الزّمنِ

وقوله كذلك وهنا يعني المتوكل، متمنياً أن يجد عنده الإنصاف:

والذي أسْأل أن يُنصِفَنِي حاكِمٌ يقضِي بما يَلزمُني

ومن المعاني التي نجدها في سجن الحبس، ما يعانيه المسجزن من تخلي الأصحاب والرفاق في أوقاتت المحنة والضيق، وهذا من أشد الأمو إيلاما على النفس البشرة، حيث تكون مطمئنا بأن فلان إلى جانبك وفي معونتك وفي لحظات الجد تكتشف أنه كان مدّعيا غير صادق في تودده. فقال ابن المدبر عن تبدل أحوال من ادّعوا صحبته ولم يجدهم في محنته[31]:

وصديقٌ تَرَاهُ حُلوًا أنيقًا مؤنِسًا مُلْطِفًا حَفيًّا شفيقَا

ثمَّ لمَّا رَمَانِي الدَّهرُ بالغِلِ ظةِ منهُ صارَ البعيدَ السحيقَا

وهذا المعنى نجده قد تكرر عند ابن المدبّر، ويبدو أنه قد أثر على نفسيته وبدّل نظرته إلى مسألة وجود الخل الوفي، فما مرَّ به من تجربة خلص منها لانعدام وجود الأوفياء أو ندرتهم على اقل تقدير. وهنا يعاتب صديقا أسماه أبا الصقر، ربما لم يحفظ أصول الوداد التي كانت بينهما، وما حزَّ في نفس الشاعر كونه تبدل عليه أثناء حبسه ونكبته[32]:

لا تُطِل عذلي عناء إن في العذل بلاء

إنَّمّا أبكي خليلًا خان في الودِّ الصّفاء

لِمَ تجاهلتِ ودَاودِي وتناسيتَ الإخاءَ؟

كانت هذه متابعة لما جادت به قريحة الشاعر العباسي إبراهيم بن المدبّر، أخذناها كنموذج عن شعر السجون ولاحظنا من لالها كيف تقلبت أحوال نفسية الشاعر وكيف كان يهوّن من أمر سجنه في البداية ظنّا منه أنه لن يطول، ثم بعد أن بدأت أيامه تتسرب وتتشابه عليه، أظهر الجزع وحاول الفكاك بكل وسيلة أتيحت له، واستغل كل سانحة تقابله. والشاعر هنا كما قلنا قبلا يعبر عن مأساته التي هي مأساة جموع آخرين من المساجين ربما لم يقل أحدهم شعرا في يوم من الأيام، ولكنه إنسان عاش مرحلة قاسية ومرّ بظروف نفسية وجسدية صعبة لا يتمنى أحد أن يمر بها يومًا. فكان الشاعر أو الأديب المسجون – إن وفّق في تسريب شيء– هو من ينقل تلك التجربة من داخل أسوار السجن إلى الخارج إلى جموع الناس التي ربما ليس بوسع الكثيرين منهم القيام بشيء إلا التأسف والتحسر ومشاطرة المسجون نكبته وجدانيًا.

الخاتمة

وقفنا في هذه الدرسة على تجربة إنسانية تمثل عينة بسيطة من بحر واسع عُرف أو اصطُلِح على تسميته بأدب السجون. خصصنا عينة الدراسة بالشعر دون النثر، تكلمنا بداية عن جدلية العلاقة بين السجين والسجان، وكيف هي طبيعة العلاقة بينهما، هذه العلاقة التي كان لابد لها أن تبنى على الخوف والتوجس والقلق وانعدام الثقة، ومن ثم تناولنا الأبعاد النفسية في أدب السجون وتجسيد المعاناة والقهر اللذين غالبا ما يحياهما المساجين، ثم المبحث الثالث جعلناه تطبيقيا حيث جئنا بشعر لشاعر من العصر العباسي مرّ بتجربة السجن وصور لنا المأساة التي عايشها والتي تمثله وتمثل من هم مساجين معه –أو ربما في أماكن أخرى– من غير الشعراء أو الأدباء.

وخلصنا إلى أن:

نتاج أدب السجون والشعر منه على وجه الخصوص نتاج غزير دارت حوله العديد من الدراسات، ولازال يستوعب المزيد لمواكبة جميع جوانبه وتغطيتها.

أدب السجون يصور لنا مأساة حقيقية وتجربة قاسية خاضها شخص أو أشخاص، خاصة عندما يكون المسجون مظلوما. يصور لنا الشاعر أو الأديب كيف يراقب ذلك المسجون أيامه وهي تتسرب وتغادره تباعا وهو قابع مكانه مغلوب على أمره، لا يقوى على شيء سوى أنه (يربّي الأمل).

أدب السجون يكتسب قوته من كونه يصور لنا مأساة أريد لها أن تكون سرية مطوية في الخفاء وخلف الأسوار؛ ولكن الشعراء والأدباء عمموها وأوصلوها لعامة الناس خارج السجن، وجعلوها مشاعا ليشاركها الجميع مشاركة وجدانية على الأقل ويتألم رغم كونه لم يحياها حقيقة.

منتجو أدب السجون على اختلاف عصورهم لعبوا دور الصحفي المعاصر الذي يتجول بآلة التصوير ويلتقط صورا لكل منظر بشع أو تصرف وحشي يسيء لآدمية الإنسان.

المصادر والمراجع

[1] – أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، فصل السين المهملة، د ط، دار صادر، بيروت، د ت، 203/13.

[2] – محيي الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي معجم القاموس المحيط، ج 4، د ط، دار جيل، بيروت، 1952، ص 235.

[3] – سالم المعوش، شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2003، ص 29.

[4] – سالم المعوش، شعر السجون في الأدب العربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 35– 36.

[5] – أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة)، مؤسسة علوم القرآن، سوريا، ط 1، 1985، ص 15.

[6] – محمد خليفة عبداللطيف، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دارغريب، القاهرة، 2003، ص 21.

[7] – أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة)، مرجع سابق، ص 23– 24.

[8] – عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، لبنان، طبعة إلكترونية، 2011 م، ص 210.

[9] – ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان، دمشق، ط 2، 2007، ص 84.

[10] – مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر، ط 1، دار المعارف القاهرة، د ط، ص 119.

[11]– شعر الحطيئة، جمع وتحقيق: عيسى سابا، مكتبة صادر بيروت، ط 1،د ت، ص 47.

[12]– ديوان هدبة بن الخشرم، تحقيق: يحيى الجبوري، الناشر دارالقلم، الكويت، ط 2، 1986.

[13] – أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، 1980، ص 456.

[14]– مصطفى حجازي، سيكولوجيا الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط 2، 1980، ص 174.

[15] – ديوان البارودي تحقيق: على الجارم، ومحمد شفيق معروف، دار العودة للنشر، 1998، ص107.

[16]– مصطفى أمين، سنة أولى سجن، ج1، د ط، دار أخبار اليوم، مصر، 1991، ص وما بعدها.

[17] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: أحمد فريدرفاعي، القاهرة، د ت، 226/1.

[18] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مصور طبعة دار الكتب، 157/22.

[19] ابن الأبّار، إعتاب الكتّاب، تحقيق: صالح الأشتر، ط 1، دمشق، 1961، ص 159.

[20] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني مرجع سابق 157/22.

[21] السابق 159/22.

[22] شعراء عباسيون يونس أحمد السامرائي ص 301 نقلا عن الأغاني. وشعر ابن المدبر ظل مشتتا في تضاعيف المصادر إلى أن قام الدكتور يونس أحمد السامرائي بجمع أشعاره ضمن مصنفه الذي عنوانه

(شعراء عباسيون) فيه شعر ابن المدبّر ومن شابه حاله من الشعراء المغمورين الذين لم تجمع أشعارهم وتطبع دواوينهم حتى وقت متأخر.

[23] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني مرجع سابق، 158/22

[24] السابق 159/22.

[25] السابق 160/22.

[26] الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: سليم النعيمي، بغداد، د ت، 419/1.

[27] ابن الأبار، إعتاب الكتاب، مرجع سابق ص 161.

[28] التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، 1978، 124/2.

[29] الأصفهاني، الأغاني نرجع سابق 168/22. وابن الأبار، إعتاب الكتاب، مرجع سابق 160.

[30] الأصفهاني، الأغاني، مرجع سابق 159/22.

[31] ابن الأبار، إعتاب الكتّاب، مرجع سابق 162.

[32] الأصفهاني، الأغاني 184/22. جاء في الخبر: إنها قيلت في أبي الصقر إسماعيل بن بُلبُل، الذي ربما قام بما لم يعجب ابن المدبِّر في نكبته.